مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 26 عدد: 64 السنة: 2022

المنهجية المعرفية للقرآن الكريم وبعض تطبيقاتها

قراءة في مشروع المفكر "محمد أبو القاسم حاج حمد"

Knowledge Methodology of the Holly Quran and some of its applications
A lecture on Soudanian Thinker Muhammad Abu Al-Qasim Hajj Hamad's academic project.

شايب خليل[1]
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
ikhalil1989@gmail.com
أ.د احسن برامة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة
Barama.ahcene@yahoo.fr

تاريخ الوصول 2020/07/02 القبول 2021/12/29 النشر على الخط 2022/03/15
Received 02/07/2020 Accepted 29/12/2021 Published online 15/03/2022

ملخّص :

يُعتبر حقل الدراسات القرآنية من أبرز الحقول المعرفية المعاصرة، وقدّ عجّت المشاريع الفكرية الإسلامية بالكتابات في هذا الموضوع، وحاول المفكّرون إعادة قراءة آيات القرآن الكريم وفهمها وذلك بتسخير أدوات معرفية مختلفة بما فيها المنتج الفكري الغربي؛ ويعتبر مشروع منهجية القرآن المعرفية للمفكر السوداني محمد "أبو" القاسم حاج حمد من أهم المشاريع الفكرية المعاصرة، إذ أعاد النظر في منهج التعامل مع الكتاب الخاتم من خلال بناء نظرية تستمدّ مقولاتها من القرآن نفسه وتهتم بمفرداته وتقرأها في سياقها دون اجتزاء أو بتر من السياق.. أنتج هذا المشروع مفاهيم جديدة لآيات الكتاب العزيز: فالرّوح غير النفس، واللّمس غير المس، والنظر غير الرؤية.. وسواء اتّفقنا مع ما يطرح أو اختلفنا، فإنّ ما جاء به يؤكّد أنّ القرآن الكريم كتاب كريم لا ينضب عطاؤه، ومكنون لتُكتشف خباياه انطلاقا مما أُتيح من أدوات معرفية.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، المنهجية المعرفية، الاستخدام الإلهي للمفردة القرآنية، الأمية ..

Abstract :

One of the major contemporary fields of study are Quranic Studies , for many Islamic intellectual projects have had interest in them. Scholars and thinkers have worked on restudying and reunderstanding Quranic Ayahs through multiple means of knowledge, including that of occidental intellectual output. The Quranic Paradigm established by Sudanian thinker Muḥammad Abū al-Qāsim Ḥājj Ḥamad, is considered to be a leading intellectual project nowadays, for it establishes a new theory that reconsiders the methodology of studying the sacred book; a theory that pays attention to the Quranic term itself, and to the context in which it is utilized; without omission or misinterpretation. This intellectual project has led to the emergence of new concepts to Quranic terms (Soul and Spirit for example). Whether accepted or not, Ḥājj Ḥamad's theory is an evident proof that the Holly Quran is a generous book that never ceases to provide knowledge, and unveil secrets, according to harnessed means of knowledge.

Keywords : Holly Quran , Paradigm , Divine use of Quranic term , unletteredness ..

[1] المؤلّف المرسل: **شايب خليل** البريد الإلكتروني: **ikhalil1989@gmail.com**

1- مقدمة :

عرف القرآن الكريم في مسيرته الطويلة منذ نزول أوّل آية بغار حراء إلى أن خُتم الوحي مرحلتين متباينتين من حيث التعاملُ معه:

- مرحلة التلقي:

وهي مرحلة كان القرآن الكريم المصدر الرئيس للمعرفة وفي شتى الميادين: تفسير، عقيدة، فقه، أصول، طب، علم الصيدلة.. ؛ وقد دامت هذه الفترة مدّة طويلة نسبيا، باعتبار أن الكتاب العزيز عماد هذا الدين من جهة، وغياب المناهج النقدية للنصوص المقدسة من جهة أخرى.

-. مرحلة التحليل النقدي:

وهي مرحلة انتقل فيها القرآن الكريم من كونه مصدر للمعرفة إلى كونه موضوعا من موضوعاتها، ومجالا من مجالات التفلسف، أو بالأحرى أصبح مجالا معرفيا طبقت عليه مختلف النظريات الغربية الموظفة في نقد الكُتب المقدسة، بالإضافة إلى مختلف النظريات اللغوية والألسنية، بهدف اكتشاف مصدره وبنائيته اللغوية، ومتعلقاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، وغيرها من المباحث التي تثار في هذا الباب.

ويعتبر مشروع أبي القاسم حاج حمد في هذا المجال بالغ الأهمية، حيث أنه جاء بنظرة جديدة للقرآن الكريم واعتبره كتابا معادلا للوجود الكوني وحركته، تُطابق بنائيته على مستوى الحرف بنائيّة الكون على مستوى النّجم، فكما أن اختلال النظام الكوني قد يحدث من خلال اضطراب يقع على مستوى كوكب بسيط منه، فإن القرآن يصاب بنفس الاختلال في المعنى إذا اختل فيه حرف واحد، بمعنى آخر إنّ القرآن الكريم يشكّل وحدة عضوية منهجيّة مركّبة على مستوى مواقع الحرف كما يشكلها الكون على مستوى النّجم، ومنه فالخلل في فهم مدلولات الألفاظ يعني الخلل في التعرف على منهجية القرآن المعرفية.

ومن هنا نطرح مجموعة من التساؤلات: ماذا نقصد بالمنهجية المعرفية؟ هل يمكن أن يرقى الاستعمال البشري للمفردة اللغوية إلى أن يضاهي الاستعمال الإلهي؟ هل تكون لغة القرآن هي السبيل لولوج رحابه؟ ما هي أبرز التطبيقات العملية لهذه المعرفية ؟.

وقد سبقنا لطرق هذا الموضوع مجموعة من الباحثين نذكر: الدكتور حسن حما ومقاله "فهم القرآن عند حاج حمد"، عرض لمشروع الراحل وعرّج على موضع المنهجية المعرفية تعريفا كما ذكر بعض تطبيقاته، حاولنا في هذا المقال أن نطرح الموضوع في سياق لغوي مستصحبين بعض من كتب في الموضوع مثل المفكر توشيهيكو إيزوتسو ونتعمق في تطبيقات هذه المنهجية على مفهوم الأمية بشيء من التوسّع، إضافة إلى البحث عن مفهوم العورة والسوءة والفرج وهو ما لم يأتي عليه الدكتور.

في هذا الإطار أقدم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ: المنهجية المعرفية وبعض تطبيقاتها.. قراءة في مشروع المفكّر محمد "أبو" القاسم حاج حمد.

وقد وضعنا للوصول إجابات الخطة الآتية:

- مقدمة.
- المنهجية المعرفية مفاهيميا.
- مرتكزاتها.

– المعرفية و بعض تطبيقاتها.

– خاتمة.

كان احتكاك حاج حمد [1] بهذه المدونة المعرفية الإلهية وتفاعله معها مبكرا جدا، حيث حفظه وهو طفل صغير، ولقد ظلت صلته به وطيدة متينة طول حياته، بل حتى في أحلك و أصعب حالاته الشكّية الارتيابية، و التي انقطع فيها حتى عن عبادة الله تعالى لكنه بقي يقرأ القرآن الكريم رغم أنه كان في كثير من الأحيان يزيده شكا وارتباكا وضياعا وتيها، يقول: "لماذا باسم الله الرحمان الرحيم الحمد لله رب العالمين، هل استشارنا في قضية أن يخلقنا ويجبرنا أن نحمده أو لا؟ (...) أي عالمين؟ و ليس رب العالم؟، (ألم) لماذا ألف لام ميم هل أمامي طلاسم؟ (...)، (غير المغضوب عليهم) لماذا خلقهم ليغضب عليهم، (و لا الضالين) لماذا خلقهم و أضلهم و هو أقدر على هدايتهم وبعد ذلك تنتظره جهنم؟.. "[2]، رغم كل هذه التساؤلات وغيرها إلا أنه بقي يقرأ القرآن ويحاول إيجاد حلول لها.

عمل حاج من خلال علاقته بالكتاب العزيز على بناء منهج يستمد قواعده ومقولاته من القرآن الكريم ذاته باعتبار هذه المدونة المعرفية آخر رسالة من السماء لساكنة الأرض، كما أنه كريم ليجود ولا ينضب عطاؤه، مكنون ليكتشف ولن تنصرم خباياه[3].

إن العالم الذي نعيشه اليوم يسير بخطى ثابتة نحو حتمية اكتشاف دليل منهجي معرفي يحمل الخير للبشرية جمعاء [4]، وكل محاولة لجعل هذا البديل خاصا أو إقليميا أو فئويا محاولة قاصرة تنظر للعالم بعين واحدة.

والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي جاء بهذه العالمية، يقول: "فهو للناس كافة، يتسع لمطلق الزمان والمكان، جاء حاملا للصيرورة الكونية كلها، ومعادلا بالوعي للوجود الكوني وحركته"[5]؛ فالقرآن الكريم وهو يكشف عن متغيرات العصور من خلال منهجه الاسترجاعي النقدي يظل أكبر من أي عصر ومهيمنا عليه بوعي متقدم يتجاوز الزمان والمكان ليكون صالحا لكل عصر، لكن متعاليا عن الزمكان[6].

لكن كيف يمكن أن نطرح كتابا نزل منذ خمسة عشر قرنا طرحا عالميا؟، هل يمكن فعلا أن يقود المسلمين أولا إلى خارج التخلف؟، ثم كخطوة لاحقة هل يمكن أن يقدم فعلا البديل العالمي؟، كيف يمكن فهمه فهما جديدا يتماشى والأفق المعرفي المعاصر؟.

---

[1] – **محمد أبو القاسم حاج حمد** 1941 – 2004، مفكر وباحث سوداني، عمل مستشاراً علمياً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، أسّس عام 1982 "مركز الإنماء الثقافي" في "أبو" ظبي، كما أنشأ في قبرص "دار الدينونة" لإعداد موسوعة القرآن المنهجية والمعرفية ومجلة "الاتجاه"، صدر له عدة مؤلفات، منها: العالمية الإسلامية الثانية، و منهجية القرآن المعرفية، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية..انظر: الحاج دواق، المشروع المعرفي لمحمد "أبو القاسم" حاج حمد وتطبيقاته النقدية، رسالة دكتوراه(غير مطبوعة)، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ص 6-8.

[2] – المرجع نفسه ، ص 35 .

[3] – محمد أبو القاسم حاج حمد، خصائص القرآن الكريم، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المملكة المغربية، 29 سبتمبر 2016، ص1.

[4] – حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، مراجعة محمد العاني، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط2، 2012، ص 80.

[5] –محمد أبو القاسم حاج حمد، إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا الكونية، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المملكة المغربية، 04 نوفمبر 2014، ص 16 .

[6] – المصدر نفسه، ص 16 .

2- المنهجية المعرفية مفاهيميا:

يرى حاج حمد أنه من أنفس ما توصلت إليه العلوم المعاصرة هو المنهج، الذي هو عبارة عن آليات متضافرة للكشف عن الحقائق المعرفية المختلفة في مجالاتها المتعددة والمتنوعة، وقد أدى المنهج إلى بروز مفهوم أكثر دقّة وانضباط، وهو المنهجية التي هي: "تقنين للفكر، ودون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخواطر انتقائية قد تكون عبقرية ومشرقة جداً وذات جدوى في كثير من الأحيان وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة"[1]، والمنهجية بمعنى أوضح هي الناظم العام للمفاهيم والمكيّف للقوانين، والمتدخّل في صياغة الفرضيات، والمسؤول عن إحداث قطيعة معرفية مع أشكال النشاط العقلي المُرتبط بتطوّر الفكر الإنساني -و يقصد هنا بالتحديد العقلية الإحيائية [2] و العقلية الثنائية [3]-، والخروج بهذه النظريات بل و بالعقل الإنساني ككل إلى المرحلة التوحيدية[4]، حيث يبدأ في البحث عن تفسير كوني للقوانين بهدف الوصول إلى نظريات تُشكّل في نهاية المطاف منهجا مُوجِّها للأفكار والإبداعات في مختلف المجالات [5].

أما المعرفية فهي توظيف المحدّدات النظرية العلمية في العلوم الطبيعية والإنسانية في تحليل مختلف الإشكاليات المطروحة ومعالجتها، وهي مهمة الإبستيمولوجيا المعاصرة؛ لكن حاج حمد يوظف المعرفية بعيدا عن إطارها الفلسفي الذي يُوَظِف ضمنه المحددات المعرفية العلمية، وهي عند مفكّرنا: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة[6].

ويقصد بها أيضا إرجاع المفردات اللغوية والأفكار والاتجاهات ومحتوى الثقافات إلى أصولها البنائية التي تُحدّد دلالاتها؛ وحين يُطلق حاج حمد المعرفية القرآنية فإنّه يقصد استرجاع الأصول التي يُحدّد بها القرآن الكريم فهم ظاهرة أو أمر ما، ولا يكون الاسترجاع إلا بتفكيك المفهوم وتحليله ثم سحبه على الاستخدامات الشاملة له في نفس الإطار، وهذا ما يُعرف بالعلم السيميائي الذي يضبط العلاقة بين البناء اللفظي وتركيبه [7].

ويكمن الفارق في استخدام هذه المفردة بين حاج حمد وغيره من الفلاسفة وبالتحديد مع جماعة فيينا [8] في أن الأخيرة ورغم انتهاجها لنفس المنهج السيميائي الذي تبنّاه مفكرنا وربطها بين نظريات ومبادئ العلوم الطبيعية ونظريات المعرفة الإنسانية من

---

[1]- مولاي أحمد صابر، عرض كتاب: منهجية القرآن المعرفية ، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، 2013/10/03، ص 2.

[2]- هي افتراض وجود نفوس حيّة داخل كل ظاهرة من ظواهر الوجود المتشيّء وأن هذه النفوس تُقيم علاقاتها ببعضها كما يُقيم هو ذاته علاقاته ببعضه.

[3]- أو مرحلة الثنائيّات المتقابلة حيث أسقط مفهوم الذكر والأنثى على مختلف الظواهر الكونية، فقابل الليل والنهار، والشمس مع القمر، السماء مع الأرض، الحار في مقابل البارد ...

[4]- أو مرحلة التكامل أو وحد الوجود بصورتيها الروحية ربما حتى المُتطرّفة منها التي تنتهي بتجلي الله في العالم، أو المادية التي جعلت المادة إلها مضمّنا في الكون؛ و من خلال الحركية الانتقائية بين الحلوليّتين نبعت و تنوعت التفرعات الفلسفية . انظر: - حاج حمد ، أبستيمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج، دار الهادي، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 41 – 42 .

[5]- حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، مراجعة محمد العاني، دار الساقي، بيروت، لبنان، ط 1، 2013، ص 46-49

[6]- حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، المصدر السابق، ص 38- 39 .

[7]- حاج حمد المنهجية المعرفية، المصدر نفسه، ص 182 .

[8]- تكوّنت هذه الجماعة حين اجتمع كلّ من الرياضي هاتر هات، والاقتصادي آتو نويراث، والفيزيائي فرانك فليب عام 1925 م، وكوّنوا حلقة تهدف إلى إيجاد فلسفة تهتدي بمنهج العلم الذي يُقدّس و يتعرف بأهمّية الرياضيات والمنطق والفيزياء النظرية في التفكير العلمي. انظر: ألفريد بولس آير، من الوضعية المنطقية إلى التحليل النفسي، منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، ط 1، 2001، ص 43 .

جهة، وبين ما يسمى بهياكل المعرفة من جهة أخرى، إلا أنها ألغت البحث في الجانب الغيبي ورفضت الخوض في قضايا المُطلق والجوهر، وهنا مربط الفرس إذ الهيكل الكلّي الذي يبحث فيه حاج حمد أكثر اتساعا من الإطار الذي تبحث فيه الجماعة[1]، و هنا تكمن نقطة قوة مشروع حاج حمد المعرفي إذ ربط بين فلسفة العلوم الطبيعية بوصفها فلسفة التشيُّؤ الوظيفي وبين منهجية الخلق؛ وانطلاقا من هذا الربط تتخذ المعرفية القرآنية معناها العلمي فيكون أمام الكتاب العزيز أن يكشف عن دلالات الألفاظ ومعانيها السيميائية خارج نطاق الاستخدام الشائع وخارج التقليد العقلي في بناء المعرفة أو مفاهيم التعامل العامة[2].

بهذا الطرح تكون المنهجية والمعرفية توأمين هدفهما الأساس هو الأخذ بالآفاق الواسعة لقدرات الثقافة العلمية المعاصرة وتوظيفها في إعادة اكتشاف وتحليل إشكاليات المجتمع، بل والحضارة المعاصرة وفق خلفية قرآنية مُوجِّهة، كما تكون أسلمة المعرفة مجرّد بُعد غائي للمنهجية المعرفية القرآنية[3].

2 . 1– مرتكزاتها :

ويرى حاج حمد أن طرح القرآن كبديل منهجي معرفي عالمي يستلزم القراءة العلمية المنهجية وبأدوات معرفية جديدة تحرر هذا النص الإلهي مما لصق به من مفاهيم خاطئة وآراء مدسوسة[4]؛ ومن هنا كانت منهجية حاج حمد المعرفية تعتمد على:

أ . الوحدة العضوية للقرآن الكريم:

يرى محمد أبو القاسم حاج حمد أن القرآن الكريم مرّ بمرحلتين هما:

– مرحلة النزول وفقا للمناسبات:

وهي مرحلة كان الكتاب العزيز يتنزل فيها وفق مناسبات ووقائع وأحداث مختلفة يأتي قبلها أو بعدها نص إلهي سواء بحكم شرعي، أو قصة توجيهية، أو قرار تلميحي، أو..؛ وقد بدأت هذه المرحلة في غار حراء مع نزول الآيات الأولى من سورة العلق، قال تعالى: (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)[5]، أي بدأ بآية موجودة اليوم في الجزء الأخير من المصحف النهائي التّشكُّل، وانتهى بقوله تعالى:(***الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا***)[6]، وهي آية توجد في الجزء السادس من الكتاب العزيز[7] .

و قد كان التنزيل في هذه المرحلة متفرقا ليمضي بالعقول نحو التركيب المنهجي، و بهذا يعدو القرآن كتابا منهجيا معرفيا وبُشرى مستقبليا للبشرية جمعاء وعلى مرّ العصور وتعاقب الدهور؛ وقد كان الهدف الأسمى من التفرقة على مناسبات ووقائع هو تثبيت

---

[1]– أهم الأفكار التي تبنّاها مفكّروا هذه الحلقة: 1– إنكار البعد الغيبي، 2– اللغة أساسا فلسفيا، 3– التحليل سبيلا للتقويم. انظر: إبراهيم زكرياء ، مشكلة الفلسفة، دار العلم، القاهرة، مصر، ط 1، 1963، ص 76 – 146 .

[2]– حاج حمد، المصدر نفسه، ص 183 .

[3]– المصدر نفسه، ص 72 .

[4]–. المصدر نفسه، ص 33.

[5] – سورة العلق، الآية: 01 ـ 05 .

[6] – سورة المائدة، الآية: 03 .

[7] – حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، مصدر سابق، ص 426 .

قلوب المؤمنين[1]، قال عزّ وجلّ: (**وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا**)[2]؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أن القول بأن القرآن نزل مرتبطا بمناسبات كلام فيه من التعميم الكثير، إذ توجد كثير من النصوص لا ترتبط بأسباب نزول، كما أن تأكيد المفسرين على استصحاب هذه الأسباب جاء لتقريب المعنى لا لربط النص بوقائع تاريخية تكون علة في وجوده، وهذا عكس ما يتم تداوله في الخطاب الحداثي الذي يرى أن الأسباب علل مؤثرة ارتبط نزول الآيات القرآنية بها، وبالتالي فإن النص القرآني مرتبط ببيئة وأسباب نزوله ومحكوم بها ولا يجاوزها إلى غيرها وهذا ما سيؤدي إلى ارتباط القرآن الكريم بظروف وحيثيات النزول وعدم صلاحيته لكل زمان ومكان، وهذا طبعا خلاف ما أسس له المفسرون، يقول العشماوي: "الشريعة كانت تنزل لأسباب تقتضيها، وأسباب التنزيل ليست مناسبات لها"[3]، وهذا القول ينفي التاريخية عن آيات القرآن الكريم ويبعد عنها الارتباط بالظروف والسياقات التاريخية، ولا يجعل أسباب النزول عللا مؤثرة في وجود الحكم أو النص الديني أو عدمه.

– مرحلة إعادة الترتيب:

وفي هذه المرحلة عرف القرآن بعد اكتمال تنزله إعادة ترتيب وتقديم وتأخير، جعلته يبتدئ بسورة الفاتحة وينتهي بسورة الناس؛ وقد كانت هذه العملية وقفية من عند الله على يد رسول الله صلى الله عليه و سلم، ولم يبق بعدها لمن أتى بعده سوى الاستنساخ وربط الصحائف، قال تعالى: (**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**)[4]، وفي هذه الآية إشارة للمرحلة الأولى –مرحلة مرحلة تثبيت الإيمان ليثبت–، وإشارة للمرحلة الثانية إذ البشرى دائما حالة مستقبلية تقتضي الخروج من حالة الواقع الاجتماعي والتاريخي بصفة عامة إلى منهجية عضوية تجعل من القرآن كتابا موحدا عضويا وممنهجا على هذه الوحدة في بنائية على مستوى الحرف تشبه بنائية الكون على مستوى النجم.

ووحدة الكتاب العضوية من أهم معجزات القرآن، فالنص واحد لا يتغير ولا يتبدل، لكن قراءته وفهمه يختلف تبعا للتركيب و لفارق النوعي في تطور العقل البشري، حيث أن لكل عقلية تاريخية إسقاطاتها الذهنية المميزة لها وطرقها الخاصة على القرآن وذلك تبعا لمبادئها العقلية وأنماطها الفلسفية وتصورها للمحاور الفلسفية الكبرى – الوجود، المعرفة والقيم– [5].

وبهذا تكون موضوعاته متداخلة، وأطروحاته مترابطة ومتفاعلة فيما بينها تبعا لنظام التوحيد الذي تتسم به، فلا يمكن قراءة بعض النصوص بعيدا عن المعنى الكلي للقرآن، ولا يمكن فهم آية مبتورة من السياق، ولا يمكن إدراك محتوى جزء مقتطعٍ من كلٍّ .

ب . القرآن معادل للوجود الكوني وحركته:

قال تعالى:(**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (78)لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (79)تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)[1]، فالقرآن الكريم في بنائيته على مستوى الحرف يماثل الكون في

[1] – حاج حمد منهجية القرآن المعرفية، المصدر السابق، ص 84 .

[2] – سورة الإسراء، الآية 106 .

[3]– محمد سعيد العشماوي، أصول الشريعة، دار إقرأ، بيروت، لبنان، ط2، 1983، ص60.

[4] – سورة النحل الآية : 101 – 102 .

[5]– ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1979، ط 1، ج 1، ص 426 .

بنائيته على مستوى النجم، بحيث إذا اختل وتفلّت أو تزحزح نجم عن موقعه اختل نظام الكون بأسره[2]؛ إن القرآن الكريم إضافة إلى أنه مدونة معرفية، هو سجل كوني مفتوح لا يمكن للنفس البشرية الاطلاع على مكنوناته إلا بالتزكية وترقية الذات حتى تترقى في معارج النور وتطلع على خبايا الكتاب العزيز ومنابع الحكمة فيه[3].

إن هذه البنائية القرآنية من أهم أسباب إعجازيته، بحيث لا يستطيع أحد ضبط الصياغة القرآنية على مستوى الحرف إلا الله تعالى؛ ومنه تصبح لكل حرف وظيفته الألسنية البنيوية في الإنشاء القرآني، ولكل كلمة قرآنية دلالتها المفهومة المميزة بها عن غيرها[4].

فإذا تأكد هذا فإن القول بأن بعض الكلمات القرآنية مقحمة، أو أن بعض حروفه زائدة زيادة معنوية قولٌ لاغٍ لا اعتبار له، يقول عبد الله دراز: "إن الحكم في القرآن بهذا الضرب من الزيادة أو شبهها إنما هو ضرب من الجهل بدقة الميزان الذي وضع عليه أسلوب القرآن، فإذا عمي عليك وجه الحكمة في كلمة منه أو حرف فإياك أن تركن إلى راحة اليأس فتقعد عن استجلاء تلك الأسرار فعسى الله أن يفتح لك بابا من الفهم تكتشف ما عمي على غيرك"[5].

ثم إن الاستخدام الإلهي للمفردة القرآنية يختلف نوعيا عن استخدامها على المستوى البشري؛ فالاستخدام الإلهي قائم على الإحكام المطلق وبالتالي لن يكون في الكتاب العزيز مترادفات، بل لكل كلمة ترتقي إلى مستوى المصطلح الدلالي المتناهي الدقة الذي إذا اختل معناه سيختل النظام القرآني تماما كما سيختل النظام الكوني إذا اختل منه نجم.

لسائل أن يقول: مادام القرآن الكريم بهذه الدقة على مستوى الحرف، فما قولكم في كونه تنزل على سبعة أحرف؟!، ألا يعتبر هذا خللا في النظم القرآني؟!، خاصة وقد جاء في الحديث: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه"[6].

يرى بعض من كتب في هذا المجال أن الأمة مُخيّرة في القراءة بأي حرف شاءت، كتخييرها في قضاء حنث اليمين بين العتق والإطعام والكسوة، أو في الإفطار العمدي في رمضان بين: الصوم ستين يوما أو إطعام ستين مسكينا أو عتق رقبة؛ فبأي واحدة من هذه التزم أجزأته، وكذلك التلاوة بأي حرف التزم أجزأه[7] .

إن بنائية القرآن على مستوى الحرف ودقته نظمه –حسب حاج حمد– تنفي كل النفي أن يتنزل على سبعة أحرف من لغة العرب كما يروج في كتب التفسير، ذلك أن اللغة القرآنية إلهية لا بشرية، تتمتع بالضابط المنهجي الدقيق الذي يجعل من الحرف

---

[1] – سورة الواقعة ، الآية : 75– 79 .

[2] – أبو القاسم حاج حمد، أبستيمولوجية المعرفة الكونية، مصدر سابق، ص 51 .

[3] – حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، مصدر سابق، ص 88–98 .

[4] – المصدر نفسه، ص 89 .

[5] – محمد عبد الله دراز ، النبأ العظيم نظرات في القرآن ، دار الثقافة ، الدوحة ، قطر ، ط 1 ، 1985 ، ص 130 – 131 .

[6] – البخاري، صحيح البخاري، باب أنزل القرآن على 07 أحرف، رقم 4706 / مسلم ، الصحيح ، باب بيان أن القرآن على 7 أحرف ، رقم 19 .

[7] – أبو عمرو الداني، الأحرف السبعة للقرآن، تحقيق عبد المهيمن طحان، دار المنارة، جدة، العربية السعودية، ط1، 1997، ص 52 .

بمثابة النجم الذي إذا اختل فسد نظام الكون؛ ويذهب مفكّرنا إلى أن العنعنة [1] و الكشكشة [2] التي قُرئ بها القرآن لا علاقة لها بحرف التنزيل المنضبط الدقة، بل هي مجرد قراءات قرأت كل قبيلة وفق ما جرى عليها لسانها و لا علاقة لها بكتاب الله تعالى [3] .

صحيح أن كل أمة تفكر بما تتكلم، وتتكلم بما تفكر، وصحيح أيضا أن العربية هي لغة القرآن كما صرح في بعض الآيات، لكن بالمقابل اللغة ليست مجرد كلمات ذات معنى دلالي تطلق على مسمى دون وسيط مشكل للتصور الذهني، فكل كلمة تستدعي تصور معين مرتبط ببيئة تاريخية وثقافية معبرة حددتها الجغرافيا العربية؛ لكن رغم هذا فإن المفردات القرآنية متوافقة مع بعضها البعض بإحكام تام، هذا الإحكام والترابط هو الذي تستمد منه المفردات معانيها حيث تشكل بين نفسهما مجموعات متنوعة صغيرة أو كبيرة، ثم يكون ترابط بين هذه المجموعات، ثم يكون في نهاية المطاف مجموعا كليا منظما وشبكة غاية في التعقيد والتركيب من التداعيات المفهومة، هذا النظام المفهومي هو الذي يطرح المفردة ضمن نسقها بعيدا عن أخذها منعزلة، بمعنى أنها تقرأ ضمن بنية عامة أو كل موحد[4] .

و رغم أن نفس المفردات القرآنية كانت مستخدمة في القرن السابع للميلاد، إلا أنها تنتمي لنظام مفاهيمي مختلف –كما سبق–، لكنّ القرآن الكريم جاء فوظفها ضمن سياق مفاهيمي جديد وشبكة دلالية مغايرة لما كانت عليه في العصر الجاهلي.

لقد كان لهذا التحول المفاهيمي والتضمين الديني والقيمي والأخلاقي دور كبير في إحداث تغيير كامل في التصور العربي للعالم وللوجود الإنساني؛ وهذا ناتج طبعا عن التأثير الذي يحصل من خلال الانتقال من سياق إلى آخر[5]، حيث أصبح الفرد العربي بعد أن كان يعيش الجاهليةَ حاملاً للرسالة الخاتمة، ومزوّدا بمنهجية معرفية تزاوج بين الغيب والمادة دون أن تسمح لجزء من طرفي المعادلة أن يطغى أو يستحوذ على الجزء الآخر، كما أنه جغرافيا يتوسط أرض النبوات من ماوراء النهر الى مصر[6]، حامل لمشروع عالمية الخطاب وحاكمية الكتاب وبديل منهجي للخلاص العالمي.

ويزيد حاج حمد على ما ذهب إليه توشيهيكو إيزوتسو حين يقرر أن هناك فارقا كبيرا ودقيقا بين شاعرية العرب اللغوية مع تفردها اللساني، ودقة الاستخدام القرآني لها، فالاستخدام الرباني يرتقي بالمفردة إلى مستوى المصطلح –مثلما أسلفنا–، ويجعله يتعارض مع ما وثّقه العرب في لسانهم البلاغي، صحيح أن القرآن مركب على اللغة العربية كأداة تعبيرية، لكنه أيضا مركب على منهجية معرفية تضبط كل الموضوعات التي يطرحها ويعالجها وبالتالي يجب أن تخضع هذه الأداة التعبيرية لنفس الانضباط المنهجي،

---

[1]– هي إبدال الهمزة عينا ،تنسب إلى تيم ومن جاورها كقيس وأسد وطيء، انظر: أبو منصور الثعالبي، فقه اللغة، تحقيق ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص 151-152 .

[2]– هي إلحاق الشين بكاف المخاطبة أو جعل الشين مكان الكاف وذلك حال التأنيث، وتنسب إلى ربيعة ومضر وبكر، انظر: المرجع نفسه، ص 151-152 .

[3]– حاج حمد، منهجية القرآن المعرفية، مصدر سابق، ص 89 .

[4]– توشيهيكو إيزوتسو، الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم، ترجمة هلال محمد الجهاد، المنظمة العربية للترجمة،بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 34 ـ 35 .

[5]. المرجع نفسه، ص 35 .

[6]– حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، مصدر سابق64-65 .

أي تتحول المفردات من مجرد كلام إلى مصطلحات دقيقة، و يصبح لكل مفردة معنى واحدا ووحيدا ومحددا مهما اختلف السياق، ولكل كلمة معناها الخاص وإن بدت مترادفة متشابهة المعنى مع غيرها [1].

و بمعنى أدق، يمكن القول بأن الإلمام باللغة العربية وعلومها لا يكفي وحده في فهم الآيات القرآنية، ذلك أن القرآن الكريم بناء إلهي استوعب مفردات اللغة العربية واستخدمها استخداما جديدا ودقيقا يخدم المنهجية التي بُنِيَ عليها هذا الكتاب الإلهي [2].

إن هذه النظرة الجديدة للكتاب الخاتم جعلت حاج حمد يراجع و ينقض كثيرا من الموروثات الفقهية والدينية، ويعطيها معنى جديدا مغايرا؛ فالفرج ليس العورة ولا السوءة، والحجاب ليس الخمار ولا الجلباب، واللمس غير المس والنظر غير الرؤية.. ،كما جعلت لمشروعه الفكري قاموس مفاهيميا خاصا .

إن القرآن الكريم بهذا الطرح كون تحكمه بنائية في غاية الدقة والانضباط المنهجي لا اعتبار معه للمكية أو المدنية، ولا الناسخ والمنسوخ بمفهومه الكلاسيكي، ولا الأصل ولا الفرع، ولا آيات الأحكام وآيات القصص، بل هو بنائية واحدة كاملة متكاملة متماسكة يشد بعض آياتها بعضا، لا يصح تجزئته ولا تشتيته ولا قراءته قراءة عضينية.

2 . 3 – بعض تطبيقاتها :

1.3–مفهوم الأميّ:

يرى مفكرنا أن من بين أهم وظائف المنهجية المعرفية القرآنية عدم التسليم المُطلق بالموروث الديني التفسيري الذي يستمد أصوله من الموروث الديني التوراتي، وهذا الأخير بدوره مستخلص من الموروث الأسطوري البابلي[3]، وسنأتي في هذه العجالة على ذكر أنموذج من تطبيقات المنهجية المعرفية على مفهوم "النبي الأمّي"، وهل المقصود من الأمية عدم إجادة القراءة والكتابة؟، وهل فعلا كان الرسول صلى الله عليه وسلّم أمّيّا؟.

إذا رجعنا إلى الأصل اللغوي نجد:

الأمّيّ والأُمَّانُ: من لا يكتب، أو من على خِلْقَةِ الأُمَّةِ لم يتعلم الكتاب، وهو باقٍ على جبلّته، والغبي الجِلْفُ الجافي القليل الكلام [4]؛ وقال ابن فارس: "وأمّا الهمزة و الميم فأصل واحد يتفرّع منه أربعة أبواب وهي: الأصل ، والمرجِع، والجماعة، والدّين (..) (..) والأميّ في اللّغةِ المنسوبُ إلى ما عليه جِبلّةُ الناس لا يكتب، فهو –في أنه لا يكتب– على ما وُلد عليه"[5].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هناك بعض المفكرين المعاصرين يرون أن هذه المفردة ليست عربية الأصل، يقول محمد عابد الجابري: "هذا المعنى اللغوي ليس نقلا عن العرب، بل هو اجتهاد من علماء اللغة في إيجاد أصل لكلمة "أمي" في لغة العرب، هو أصل لا يستقيم مع الحديث المذكور والآيات السابقة، لأنه يقوم على نسبة الأمي إلى الأم كما وضعته على عجمة اللسان والعي والجفاء، وهي صفات لا تليق لا بمقام النبي

[1] – المصدر نفسه، ص 556–560.
[2]. المصدر نفسه ، ص 64 .
[3]– حاج حمد، المنهجية المعرفية ، مصدر سابق ، ص 108 .
[4]– مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 8، 2005، ص 1077.
[5]– ابن فارس ، مرجع سابق، ج1، ص 28 .

محمد صلى الله عليه وسلّم ولا بمقام قومه وأمته، والواقع أن لفظ أمي لفظ معرب، لا أصل له في اللغة العربية" [1]؛ ويذهب المفكّر الصادق النيهوم إلى أن هذه المفردة عِبْري، يقول في ذلك: "فكلمة أمي لا تعني غير متعلم إلا في قاموس رجل جاهل حقا، إنها مصطلح توراتي مشتق من كلمة (ا و م ت ي ا) بمعنى أممي أي غير تابع لأهل الكتاب من اليهود بالذات"[2].

والحاصل أن مصطلح أمّيّ تأتي في الغالب بمعنيين:

- جهل القراءة و الكتابة:

- بقاء الشخص على أصل ما ولدته أمه، وهو تعريف يستبعد مختلف التجارب التي يمكن أن يعيشها الإنسان وكل المعارف التي يمكن أن يحصّلها من محيط عيشه، أو احتكاكه بأقرانه ..

أما إذا جئنا إلى المعنى الاصطلاحي فإننا نجد أن الخلاف قائم في ضبط التعريف، وسنعرض لآراء بعض المفسرين فيما يلي:

يقول ابن عباس: "الأميون هم العرب كلهم، من كتب منهم ومن لم يكتب لأنهم لم يكونوا أهل كتاب، وقيل: الأميون الذين لا يكتبون، وكذلك كانت قريش "[3].

و عُرّف بأنه: المنسوب إلى الأم، أي هو على ما ولدته أمه؛ وقيل: هو منسوب إلى الأمة، وأصله أمتي، فسقطت التاء في النسبة كما سقطت في المكي والمدني؛ وقيل: هو منسوب إلى أم القرى وهي مكة المكرّمة [4]، وكان أهل الكتاب يسمون العرب بالأميين، ولعله كان لقبا لأهل الحجاز ومن جاورهم دون أهل اليمن[5].

وقيل: منسوب إلى الأمة أي الذي حاله حال معظم الأمة، أي الأمة المعهودة عندهم وهي العربية، وكانوا في الجاهلية لا يعرف منهم القراءة والكتابة إلا النادر منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب بالأميين[6].

أما المُحدّثون فيرى ابن الأثير أن الأميين: "على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب، فهم على جبلتهم الأولى"[7]؛ وقال القاضي عياض: "الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، قيل نسب بصفته تلك إلى أمه إذ هي صفة النساء وشأنهن غالبا، فكأنه مثلها"[8].

نخلُص إلى أن المفردة تدور بين إحدى هذه المعاني:

1. وصف لجبلّة الإنسان و بقائه على ما ولدته أمه من جهل الكتابة القراءة .
2. وصف للعرب لأنهم لم يكونوا أهل كتابة .
3. وصف لسكان مكة وهي أم القرى .

---

[1] – محمد عابد الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006، ج 1، ص 83 .

[2] – الصادق النيهوم، إسلام ضد الإسلام، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1993، ص 23 .

[3] – شمس الدين القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر، ط 2، 1964، ج 9، ص 256

[4] – الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420 هـ، ج 2، ص 238 .

[5] – إسماعيل حقي، روح البيان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج 3، ص 257 .

[6] – محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 1، 1984، ج 9، ص 133.

[7] – عز الدين ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1979، ج 1، ص 68 .

[8] – القاضي أبو الفضل عياض السبتي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، المكتبة العتيقة، تونس، ط 1، 1333 هـ ، ج 1، ص 83

4. لقب لأهل الحجاز والشام .

فكيف نظر مفكرنا للموضوع؟، وهل اعتبرها صفة حقيقية للنبي صلى الله عليه وسلّم؟.

يذهب حاج حمد إلى أنّ مصطلح الأمّيّة يحمل مدلولا معرفيا مخالفا لما هو شائع في المجال التداولي اللغوي والفكري العربي القديم منه والحديث، فالأمية حسبه تعني عدم الانتماء إلى دين سماوي وعدم الإيمان بأي كتاب مُنزّل، بمعنى أن الأمية هي كون المرء غير كتابي وليس غير كاتب؛ يقول في ذلك: "حين يُقال (النبي الأمّيّ) بما يعني أنه صلّى الله عليه وسلّم لا يقرأ الرسوم ولا يخطّ بيمينه، ثم نقول إن الأميّة لا تعني غير الكاتب ولكنها تعني غير الكِتابي، ينصرف فهم الناس إلى أننا نثبت للرسول كونه كاتبا وقارئا للرسوم، وهذا فهم خاطئ، وقائم على خطأ مركّب في شيوع اللسان العربي، فالنبي لا يقرأ الرسوم ولا يكتب ولكن ليس بمعنى أمي، لكن بالمعنى الذي أورده القرآن"[1]، وهذا يظهر من خلال تطبيق المنهجية المعرفية على آيات الكتاب العزيز، قال تعالى: (وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[2]، من خلال هذه الآية يتّضح لنا جليا أن غير كاتب لأنه لا يخطّ بيمينه، وأمّيّا لأنه لا ينتمي إلى أمّة تعتنق كتابا سماويا يُتلى[3]، وهذا ما يؤكّد أن الاستخدام الإلهي للمفردة اللغوية يختلف عن الاستخدام البشري، فالأخير يستخدم الأمية كتدليل عن جهل الكتابة والقراءة والحساب بينما يوظّفها الله بمعنى عدم الإيمان بكتاب سماوي حتى وإن كان هذا الشخص قارئا وكاتبا وحاسبا.

ويذهب إلى أن الربط بين الجاهلية التي كانت تُنسب للعرب في الفترة السابقة للإسلام إنما هي جاهليّةُ حِمِيَّةٍ وتفلّتٍ من قيود العقل لا عدم معرفة القراءة والكتابة والخط والحساب[4]؛ وتؤكّد الدراسات التاريخية في هذا السياق أن العرب لم تكن بذلك الجهل بل كانوا يكتبون ويحسبون، يقول الجابري: "تؤكد مصادرنا أن قصي بن كلاب الجد الأعلى للنبي صلى الله عليه و سلّم كان يعرف القراءة والكتابة، وأن جده المباشر عبد المطلب بن هشام كان يقرأ ويكتب (..) بما فيهم عبد الله والد النبي، كانوا يعرفون القراءة والكتابة"[5].

لا يتوجّه القرآن حسب مفكّرنا إلى تلك الحقبة التاريخية السابقة للإسلام بوصفها جاهلية بل بوصفها أمّيّة وذلك حين يتّجه الخطاب الإلهي للمقارنة بين اليهود من الكتابيين وبين الأمّيين الذين لم يتنزّل عليهم كتاب، قال تعالى: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[6]، فالعرب لم يتداولوا الإيمان بالكتب السماوية بينهم، ولكنّهم يكتبون ويخُطّون بأيديهم[7]، وبالتالي فأُمّيّتهم ليست بمعنى عدم المعرفة بالقراءة والحساب والكتابة، إنّما لعدم إيمانهم بكتاب سماوي.

بل إنّ المتمعّن في آيات القرآن الكريم سيجد أنه يوجد فئتان من الأمّيّين:

---

[1] – حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، مصدر سابق، ص 145 .

[2] – سورة العنكبوت، الآية: 48 .

[3] – المصدر نفسه، ص 145 .

[4] – حاج حمد، المنهجية المعرفية، مصدر سابق، ص 175 .

[5] – الجابري، مرجع سابق، ج 1، ص 85 .

[6] – سورة آل عمران، الآية: 20 .

[7] – حاج حمد، المصدر نفسه، ص 175 – 176 .

1. فئة تنزّل عليهم كتاب مُهيمن على الكتب السماوية السابقة، بُعث من بين ظهرانيهم نبيّ ختم الله به النبوّات وهم العرب.

2. وفئة لم تلتحق في المرحلة الأولى من الرسالة بجموع المسلمين، لكنها التحقت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه و سلّم، و هم جموع اليهود والنصارى الداخلين في الإسلام[1].

ونجد في سورة الجمعة مقابلة واضحة بين فئة الأمّيين بفرعيها، وبين فئةٍ من الكتابيين هي اليهود، قال تعالى: (سَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (1)هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (2)وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3)ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (4)مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) [2] .

وتأكيدا على أن دلالة الأمي تعني غير الكتابي لا غير الكاتب، يُطْلِق الله تعالى على الفئات الضالة من اليهود صفة الأمّيّة رغم أنهم يقرؤون ويكتبون، لكنهم لا يفهمون التوراة ويحرّفون معانيها، ويُزيّفون دلالات آياتها، ويدُسّون فيها ما ليس منها، قال تعالى: (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ)[3]، فهؤلاء اليهود يكتبون ويقرؤون لكنهم أمّيّون لأنّهم لأنّهم (لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون)، وبالتالي فالاستخدام الإلهي لهذه المفردة خرج بها من المعنى المتداول لغويا إلى معنى جديد يشمل غير الكتابي والكتابي الذي يجهل كتابه السماوي ويأخذه بالظن والأماني [4].

و تساوقا مع هذا الطرح، نجد أن اليهود في القرآن الكريم يُميّزون أنفسهم عن غيرهم من سائر الأمم والشعوب انطلاقا من كونهم أهل كتاب[5]، قال تعالى: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)[6] .

يقول حاج حمد منتقدا المنهجية الكلاسيكية التي ترى أن الاستخدام الإلهي والاستخدام البشري للغة العربية سيّان: "وقد أشكلت هذه المعاني على كثير من المفسّرين، وجنح الفكر السائد دينيا وأدبيا إلى إطلاق صفة أمي على غير الكاتبين، فدَرَجَ الناس على تعريف الكتاتيب حيث يتعلم الأطفال الخط في المدارس (محو الأمية)، ومحو الأمية يعني الإيمان بكتاب الله وتصديقه، فالأولى بنا أن نعرّف هذه المدارس بأنها مدارس تعليم الخط والكتابة وليس محو الأمّيّة"[7].

---

[1] – حاج حمد، العالمية الإسلامية الثانية، مصدر سابق، ص 145 – 146 .

[2] – سورة الجمعة، الآية: 01 – 05 .

[3] – سورة البقرة، الآية: 78 – 79 .

[4] – المصدر نفسه، ص 146 .

[5] – حاج حمد، المنهجية المعرفية، مصدر سابق، ص 176 – 177 .

[6] – سورة آل عمران، الآية: 75 .

[7] – المصدر نفسه، ص 177 .

لسائل أن يقول –والحال هذه–، كان كل تعاملك مع آيات الكتاب العزيز، فما موقفك من السنة ومن الأحاديث التي تثبت عكس ما ذكرت من قبيل: "إنّا أمة أمّيّة لا نكتب ولا نحسب"؟

يجيب حاج حمد: "كيف كُتب الوحي القرآني وهم لا يكتبون؟، وكيف كُتبت المعلّقات الشعرية وعلّقت في الكعبة وهم لا يكتبون؟، وكيف حسبوا تجارة الصيف والشتاء وهم لا يحسبون؟، ومن أين جاءت وكيف تطورت الأبجدية العربية وهم لا يخطّون؟، وبأيّ خطّ كتب الرسول رسائله إلى عظماء الروم والفرس، وبأيّ خطّ صيغت صحيفة المدينة؟، وبأيّ خطّ كتبت معاهدة الحديبية؟، والرسائل إلى وُلاّة الأمصار ومناطق الثّغور؟"[1].

والباحث في كتب السنة النبوية يجد إشارات كثيرة على أن النبي يقرأ ويكتب، من ذلك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عبا: يوم الخميس، وما يوم الخميس! ثم بكى حتى بلّ دمعه الحصى، فقلت: يا ابن عباس وما يوم الخميس؟ قال: اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلّم وجعه، فقال : "ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده أبدا" [2]، ولم يعترض أحد عليه أو يقول إنك أمّيّ لا تجيد الكتابة، يقول الجابري: "إن النبي طلب أن يكتب وأنه لا أحد من المحيطين به استغرب منه ذلك، بل بالعكس كان فيهم من قال: قربوا يكتب لكم كتابا"[3]؛ وعند البخاري أيضا: "اعتمر النبِي صلى الله عليه وسلم فِي ذي القعدة، فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم أن يُقيم بها ثلاثة أيام، فلما كتبوا الكتاب، كتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا نُقرّ بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله، ثم قال لعليّ: امْحُ رسول الله، قال: لا والله لا أمحوك أبدا، فأخذ رسوله الله صلى الله عليه وسلّم الكتاب فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله"[4]، وهناك أحاديث أخرى كثيرة تثبت أنه عليه الصلاة والسلام يحسب ويكتب ويقرأ .

و مردّ هذا التناقض شيئان:

1. عمد كثير من السابقين لوصف النبي بالأُمّيّة كون الأميّة دليلا دامغا على الإعجاز وصدق الرسالة وعدم تلقّيها من مصدر آخر، يقول الجابري: "لابد أن نستحضر في أذهاننا ما حمل علماء المسلمين من جميع الفرق على نفي المعرفة بالقراءة والكتابة عن النبي صلى الله عليه وسلّم سواء قبل البعثة أو بعدها إلى مرحلة ما من حياته تأكيدُ الطابع المعجز للقرآن، بدعوى أنه إذا كان الذين يعرفون القراءة والكتابة من قريش لم يستطيعوا الإتيان بمثله، على الرغم من تحديه لهم، وكان النبي لا يعرف القراءة الكتابة وأتى بهذا القرآن، فذاك دليل على أنه وحي من الله"[5].
2. إن الفريق النّافي للأمية عن الرسول بمن فيهم حاج حمد، إنما كان موقفهم هذا مبنيا على حفظهم لمقام النبي ومكانته، فإسقاط هذا المعنى على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب خطأ في نظرهم، يقول محمد شحرور: "فهل كان النبي صلى الله عليه وسلم عاجزا عن تأليف جملة مفيدة أو كتابة كتاب" [6]؛ أما عن قول الله تعالى: (وَ مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن

[1] – المصدر نفسه، ص 177 .

[2] – البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي صلّى الله عليه وسلّم ووفاته، رقم: 4191 .

[3] – الجابري، مرجع سابق، ج 1، ص 87 .

[4] – البخاري، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، رقم: 2580 .

[5] – الجابري، المرجع نفسه، ج 1، ص 93 .

[6] – محمد شحرور، الكتاب والقرآن، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط1، 1990، ص 141 .

كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) فالآية تحمل في طياتها تقييدا للقراءة والكتابة وتدليلا على أن المقصود هو الكتاب السماوي كما ذكر حاج حمد.

2.3– السوءة والعورة والفرج:

يذهب مفكّرنا إلى أنّ السوءة غير العورة، قال تعالى: (فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)[1]، وقال: (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا)[2]، فالسوءة هي جسد الإنسان حال انحطاطه الفيزيولوجي وخضوعه لمؤثرات الطبيعة من ضعف ومرض وموت، لأن آدم حسب مفكّرنا حين اتّصل بالروح ارتقى عن مختلف المؤثرات الطبيعية[3]، قال تعالى: (إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تعرى وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تضحى)[4]، فجنة آدم كانت في الأرض لكن بالارتقاء عن النوازع النفسية من شهوة وجوع وعطش، بالإضافة إلى عدم الشعور بالتأثيرات الطبيعية من حرّ وبرد[5].

وبالعودة لمفهوم السوءة، نجد أيضا قوله تعالى: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ)[6]، ونسقيّة الآية على أن الدفن كان للجسد كله لا للعورة فقط إذ إن الغراب دفن الغراب كله لا بعضه، فالسوءة إذا ليست العورة، بل جسد الإنسان كله.

إذا تأكد مفهوم لسوءة، نأتي الآن إلى العورة والفرج، فالفرج هو ما بين الفخذين، بينما العورة –حسبه– فتبدأ من نهاية الفرج حيث مواضع العفّة إلى محيط السرة حيث موضع الحبل السرّي، فما بين السرة إلى مواضع العفة تكون حدود العورة، أما الفرج فما بين الفخذين[7]، والتفريق هنا قائم لأن ستر العورة من الأمور التي تفرضها الفطرة السليمة، لذلك نص القرآن على حفظ الفرج ولم ينص على ستر العورة، وقد ربط القرآن بين غض البصر وحفظ الفرج، لأن المطلوب هو التحكم في النفس وخلجاتها[8]، قال تعالى:(تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[9]، فالله عزّ وجلّ قد ربط حفظ العورة بحالات خلع الثياب، فمنع على الإنسان الدخول على غيره في تلك المواقيت إلا بالاستئذان، ثم أكّد على وضع الطفل الذي لم يبلغ الحلم، فإذا سهل

---

[1]–سورة الأعراف، الآية:22.

[2]– سورة الأعراف، الآية:27.

[3]– حاج حمد، تشريعات العائلة في الإسلام، تقديم وتعليق محمد العاني، مراجعة وتدقيق صابر أحمد، دار الساقي،بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 100.

[4]– سورة طه، الآية: 118–119.

[5]– المصدر نفسه، ص 96.

[6]– سورة المائدة، الآية: 30–31.

[7]– المصدر نفسه، 199.

[8]– المصدر نفسه، ص 204.

[9]– سورة النور، الآية: 58.

إظهار الفخذ أمامه فقد حذّر الله من كشف العورة أمامه[1]؛ ولم ينصّ تعالى على ستر العورة هنا لأنها كما أسلفنا من الأمور الفطرية، فحتى الإنسان البدائي يغطي عورته.

والملاحظ هنا الفرق بينما ذهب إليه الفقهاء وما طرحه حاج حمد، فحدود العورة من السرة إلى الركبة مع الأخذ بعين الاعتبار مسألة "دخول الغاية في المُغيّا"، بالإضافة إلى الأخذ بعين الاعتبار خصوصية المرأة في المسألة حسبهم، بينهما قصرها هو على المنطقة الممتدة من السرة إلى الفخذين؛ والسبب في اعتقادي راجع إلى تركيز مفكّرنا على القرآن الكريم وإغفاله للسنة النبوية، وفيها من الأحاديث ما ينقض قوله ويهدم ما ذهب إليه.

خاتمة:

نختم هذه الورقة بمجموعة من النقاط:

– إن طرح الكتاب العزيز كبديل عالمي يستوجب إعادة قراءته بعيدا عن التفسيرات الكلاسيكية المستمدة من التراث الإسرائيلي وقبله البابلي، وفق منهجية معرفية تنظر إليه في كلّيته بعيدا عن القراءة التجزيئية العضينية ووفق آليات معرفية حديثة تُيسّر اكتشاف مكونه والبحث عن كوامنه .

– المنهجية المعرفية محاولة لإسقاط بعض المناهج المعرفية الغربية على الكتاب العزيز قصد اختبار كرمه واكتشاف مكنوناته، (وضعية أوجست كونت، جدلية الماركسية وقوتها التثويرية ، ألسنية حلقة فيينا، تطورية داروين..).

– التأكيد على أن الاستخدام الإلهي للمفردة اللغوية يَفْرُقُ عن الاستخدام البشري يدفع إلى البحث عن مدلولات مفردات القرآن المعرفية، والتنبيه إلى ما وقع فيه السابقون من أخطاء في تفسير آيات القرآن الكريم، وهو ما عمل عليه مفكرنا من خلال تطبيق مشروع المنهجية المعرفية على كثير من الكلمات تُراجع في مواضعها منها: النفس والروح، المس واللّمس، الحجاب و الخمار والجلباب، العورة والفرج والسوءة ..

– إنّ ما انتهى إليه حاج حمد في مسألة أمّية النبي صلى االله عليه وسلم أمر مهم و على درجة كبيرة من الخطورة، وذلك لارتباطه بصفة من صفات النبي .

– لم يتوقّف حاج حمد عند الكلام النظري الذي انتهى إليه بعض المفكرين المعاصرين في قضية أمية النبي صلّى الله عليه وسلّم مثلما فعل الجابري أو النيهوم، بل أقام فكرته على نظرية مؤسّسة بقواعد و شواهد من القرآن والسنة .

– الخلاف الحاصل بين القائلين بأمية النبي صلى الله عليه وسلّم و النّافين، مجرّد خلاف نظري مردّه الحفاظ على مقام النبي و مكانته .

– تكشف المنهجية المعرفية على ثراء القرآن الكريم، وتنوع مدلولاته، فالعورة ليست هي السوءة، والفرج مغاير للجميع في الاصطلاح القرآني حسب حاج حمد.

– موقف حاج حمد من السنة جعله يصب كل جهده على فهم مفردات القرآن الكريم في سياق النص ذاته بعيدا عن الأحاديث النبوية، وهو ما جعله يأتي بأحكام ومدلولات مغايرة لما استقر عليه الفقهاء والمفسرون.

[1]– المصدر نفسه، ص 204-205.

– إن البحث عن مدلول مفردات الكتاب العزيز وفق منهجية معرفية تحفر عميقا للبحث عن مكامن الكتاب العزيز والبحث مكنوناته مشروع يستحق البحث، وقد بذل حاج حمد من خلال كتاباته لوضع قاموس مفاهيمي في الموضوع لكن وافته المنية قبل إكمال مشروعه؛ و بالتالي فالمشروع مازال مفتوحا أمام الباحثين في مثل هكذا مواضيع .

قائمة المراجع:

دراز، م. ع. ا. (1985). *النبأ العظيم نظرات في القرآن* ، ، (1 ط). الدوحة، قطر: دار الثقافة.

النيهوم، ا. (1993). *إسلام ضد الإسلام* (1 ط). بيروت، لبنان: رياض الريس للكتب و النشر.

حاج حمد، م. أ. ا. (2004). *أبستيمولوجية المعرفة الكونية، إسلامية المعرفة والمنهج* (1 ط). بيروت، لبنان: دار الهادي.

زكرياء، إ. (1963). *مشكلة الفلسفة* (1 ط). القاهرة، مصر: دار العلم.

إيزوتسو ، ت.، & الجهاد، هـ. م. (2007). *الله والإنسان في القرآن علم دلالة الرؤية القرآنية للعالم* (1 ط). بيروت، لبنان: النظمة العربية للترجمة.

شحرور ، م. (1990). *الكتاب والقرآن* (1 ط). دمشق، سوريا : الأهالي للطباعة والنشر.

القرطبي ، ش. ا.، البردوني ، أ.، & أطفيش ، إ. (1964). *الجامع لأحكام القرآن* (2 ط، م 9). القاهرة، مصر: دار الكتب المصرية .

بن عاشور، م. ا. (1984). *التحرير والتنوير* (1 ط، م 9). تونس : الدار التونسية للنشر.

حاج حمد ، م. أ. ا. (2012). *العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة* (1 ط). بيروت، لبنان: دار الساقي.

حقي ، إ. *روح البيان* (م 3). بيروت، لبنان: دار الفكر.

حاج حمد، م. أ. ا. (2013، سبتمبر 29). مؤسسة مؤمنون بلا حدود. استرجع في 17 أبريل، 2020، من https://www.mominoun.com/articles/%D8%AE%D8%B5%D8%A7%D8%A6%D8%B5-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85-1277

مولاي، أ. ص. (2013، سبتمبر 3). مؤسسة مؤمنون بلا حدود. استرجع في 18 أبريل، 2020، من https://www.mominoun.com/articles/%D8%B9%D8%B1%D8%B6-%D9%83%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D9%85%D9%86%D9%87%D8%AC%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%81%D9%8A%D8%A9-262

دواق، ا. (2010). *المشروع المعرفي لمحمد "أبو القاسم" حاج حمد وتطبيقاته النقدية* (أطروحة دكتوراة). كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر.

الثعالبي ، أ. م.، & الأيوبي ، ي. (2000). *فقه اللغة* (1 ط). بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.

الجابري ، م. ع. (2006). *مدخل إلى القرآن الكريم* (1 ط، م 1). بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

الفيروزآبادي، م. ا. (2005). ، *القاموس المحيط* (8 ط). بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة .

القاضي عياض السبتي، أ. ا. (1333). *مشارق الأنوار على صحاح الآثار* (1 ط، م 1). تونس : المكتبة العتيقة.

الداني، أ. ع.، & طحان ، ع. ا. (1997). *الأحرف السبعة للقرآن* (1 ط). جدة، العربية السعودية: دار المنارة.

ابن فارس ، أ.، & محمد هارون، ع. ا. (1979). *معجم مقاييس اللغة* (1 ط، م 1). بيروت، لبنان: دار الفكر .

حاج حمد، م. أ. ا. (2013). *منهجية القرآن المعرفية* (1 ط). بيروت، لبنان: دار الساقي.

البغوي، ا. ب. م. (1420). *معالم التنزيل في تفسير القرآن* (1 ط، م 2). بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

العشماوي، م. س. (1983). *أصول الشريعة* (2 ط). بيروت، لبنان: دار إقرأ.

حاج حمد، م. أ. ا.، العاني، م.، & أحمد، ص. (2011). *تشريعات العائلة في الإسلام* (1 ط). بيروت، لبنان: دار الساقي.

بن الأثير، ع. ا. (1979). *النهاية في غريب الحديث والأثر* (1 ط، م 1). بيروت، لبنان: المكتبة العلمية.

حاج حمد ، م. أ. ا. (2014، نوفمبر 4). مؤسسة مؤمنون بلا حدود. استرجع في 18 أبريل، 2020، من https://www.mominoun.com/articles/%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B9%D8%B1%D9%81%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%81%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D9%88%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B6%D8%A7%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%88%D9%86%D9%8A%D8%A9-656

آير، أ. ب. (2001). *من الوضعية المنطقية إلى التحليل النفسي* (1 ط). الإسكندرية، مصر: منشأة المعارف.